الفصل الرابع

سياسة الرشيد ضد الثورات الداخلية

- **أولًا : ثورة رافع بن ليث بن نصر بن سيار.**
- **ثانيًا : ثورات الخوراج :**

أ – ثورة الوليد بن طريف الشاري.

ب – ثورة العطاف بن سفيان الأزدي.

- **ثالثًا : ثورة أبي النداء.**
- **رابعًا : ثورة الخرمية.**
- **خامسًا : ثورات البربر في إفريقية.**
- **سادسًا : ثورات اليمن.**
- **سابعًا : ثورة الخزر.**

obeikandl.com

”ما من نفس تَموت أشد عليَّ موتًا من هـارون أمير المؤمنين، ولوددت أن الله زاد في عمره من عمري“

الفضيل بن عياض. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، (16/ 13 – 18)

obeikandl.com

إن حياة الرشيد لم تكن كما يُتصور في الأذهان، حياة قصور ودواوين، حدائق ومقاصير، لقد عرفت أيام الرشيد من الاضطرابات والقلاقل ما ندر أن يجتمع مثله لخليفة واحد، وعرفت من الصراعات ما حمل ثقل الماضي برمَّته وناء بكلكله عن حكم الرشيد، يضغط عليه ويكاد يحدُّ من انطلاقه، والرشيد بحيوية دائمة الشباب وعنفوان إرادة لا تلين، وحب لقيادة الجيوش كبير، ورغبة صادقة في السهر على راحة الناس، وتأكيد هيبة الملك ونيل رضا الله، عاش وجهًا آخر للخلافة غير وجه الترف في القصور ومع الجواري، فانتقل ما شاء له القدر أن ينتقل بين العواصم والثغور، بين الرقة والري والحجاز والشام، يقود غزوة هنا، ويقمع ثورة هناك، ويقضي على فتنة أو مؤامرة، يحج إلى بيت الله ويستخيره في قراراته، مخلِّفًا في قصوره ليالي الأنس والطرب[1].

فقد شهدت أيام الرشيد العديد من الثورات والاضطرابات، غير أنها لم تكن واسعة أو تمثل تهديدًا كبيرًا للدولة، بقدر ما كانت شهوة ملك أو اعتراض عن سوء إدارة من حكام الأقاليم، ولم يتهاون بها الرشيد ولم يضعف أو يلين بل قاومها وكان يخرج بنفسه لقمعها[2].

(1) سعدي ضناوي: موسوعة هارون الرشيد، 2/ 249.

(2) لن نتناول الحديث عن ثورات العلويين، فسوف نستعرضها بالتفصيل في حديثنا عن سياسة الرشيد تجاه العلويين. انظر ص161.

أولًا: ثورة رافع بن ليث بن نصر بن سيار

ولَّى الرشيد عامله علي بن عيسى بن ماهان على خراسان، فسار فيهم بالظلم والجور والعسف، وجمع أموال الناس بغير حق، وكان في المقابل يرسل إلى الرشيد ببغداد الأموال طائلة والهدايا ليرضى عنه، لكن الأهالي - وقد ضجروا من سياسة علي بن عيسى - شكوا أمرهم إلى الرشيد، فخرج الرشيد سنة 189هـ وعسكر في الري ليتحقق من ذلك بنفسه، وقد عزم على الخروج لمحاربته عندما أحس الرشيد أنه ينوي الثورة عليه، ولكن علي بن عيسى بن ماهان علم بقدوم الرشيد، فأسرع إلى ملاقاته بالهدايا الثمينة، كما أغدق على رجال حاشيته، فاطمأن الرشيد من جانبه، ثم عاد هـذا الوالي إلى سيرته الأولى في الظلم والاستبداد، وغلا في نكايته بمن استغاثوا إلى الخليفة.

وتشاء الأقدار أن يقوم رجل من سمرقند يدعى رافع بن ليث بن نصر بن سيار، بالتغرير بامرأة غنية والزواج منها بعد أن طالت غيبة زوجها، ولما عاد زوجها ووجد ما اقترفه رافع بن ليث رفع الأمر إلى الخليفة الرشيد، الذي أرسل إلى علي بن عيسى بن ماهان - والي خراسان - يأمره أن يفرق بينهما، وأن يقيم العقوبة على رافع بن ليث ويقيده ويطوف به في مدينة سمرقند مقيدًا على حمار، حتى يكون عظة لغيره، فقام كل من والي خراسان وعامل سمرقند بتنفيذ أوامر الرشيد وحبس رافع وجلده، ولكنه فرّ من السجن واستغاث بولد علي بن عيسى ليتوسط عند أبيه، فكان له ما أراد وأمّنه ورده إلى بلده سمرقند شريفًا معززًا.

إلا أن رافع بن ليث ثأر لنفسه من عامل المدينة وقتله، واتبعه كثير من أهالي سمرقند وما وراء النهر وأيدوه في ثورته وذلك سنة 190هـ، فأرسل إليه علي بن عيسى بن ماهان ابنه عيسى فقتله رافع ببلخ، فانسحب علي بن عيسى من بلخ إلى

مرو، خوفًا من رافع أن يستولي عليها.

وهناك رواية أخرى أن رافع بن ليث هـجم على بيت علي بن عيسى بن علي بن ماهان وقتله، واستولى على ما به من أموال، وقد وجد الناس أموالًا عظيمة قد دفنها ابن علي بن عيسى في بستان له بلغت ثلاثين مليونًا من الدراهم جمعها ظلمًا وعسفًا من الناس. فلما بلغ الخبر الرشيد عزله وولى مكانه هـرثمة بن أعين وذلك سنة 191هـ، وقد أمر الرشيد هـرثمة أن يرد المظالم إلى أهلها وأن يحكم بينهم بالعدل وأن يعطي كل ذي حق حقه، فقبض هـرثمة على علي بن عيسى وأهله وصادر أموالهم، وبعث بهم إلى الرشيد، وقد فرح الناس بهرثمة وتخليصهم من ظلم علي بن عيسى.

ومع أن الناس تخلصوا من ظلم علي بن عيسى إلا أن الرشيد لم يتخلص من ثورة رافع بن ليث، فقد عظم أمره حتى أنه في سنة 191هـ دخل في طاعته وتحت ثورته أهالي نسف وبخارى وفرغانة وخوارزم والأتراك. وقد اهتم هـرثمة بأمر رافع ولكن استفحال أمره دعا الرشيد إلى الذهاب بنفسه لحربه، فشخص يريد خراسان في ربيع الآخر 193هـ، إلا أن الرشيد لم يستطع أن يقضي على رافع فقد وافته المنية بطوس، وظل أمر رافع حتى سنة 195هـ حيث أطاع المأمون من غير قتال[1].

وهكذا ظلت ثورة رافع بن ليث تؤرق الرشيد وتذهب عنه النوم والراحة حتى وفاته، وقد كان الرشيد كفيلًا أن يريح نفسه من هـذه الهموم والدماء لو كان استعجل بخلع علي بن عيسى بن ماهان، وفي المقابل فإن الأسباب التي دعت رافع بن ليث إلى الثورة هـي أسباب واهية لا تستدعي ثورة عارمة كهذه، لولا أن يكون في قلبه حب رياسة وطمع في سلطة، فكانت واقعة زواجه وتغريم الرشيد له كالقشة التي قصمت ظهر البعير، فحركت في جوانح نفسه حب الظهور والخروج عليه.

(1) انظر تفاصيل ثورة رافع بن ليث في: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 319 – 320، 323، 340. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 647، 14/ 9 – 10، ابن قتيبة الدينوري: المعارف، 1/ 382.

ثانيًا: ثورات الخوراج

تعتبر أهم المشاكل الداخلية أيام الرشيد مشكلة عودة ثورات الخوارج، وثورات الخوارج تقوم على أساس نظري وهو العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهم يمثلون النزعة البدوية التي تكره الخضوع لأي سلطة، ولعل الضربات الموجعة التي أصابتهم من أبي مسلم الخراساني أضعفت قواهم، التي لم يستجمعوها ولم تنشط حركتهم إلا في زمن الرشيد. ومن أهم ثورات الخوارج في عهد الرشيد:

أ - ثورة الوليد بن طريف الشاري

خرج الوليد بن طريف الشاري من بني تغلب على هـارون الرشيد سنة 178 هـ مُحَكِّمًا، يعني يقول: "لا حُكْمَ إِلا للَّه"، وكان خروجه بمنطقة الجزيرة الفراتية في العراق، فقتل عامل الرشيد إبراهيم بن خازم بن خزيمة، وجعل نصيبين مركزًا لثورته، وتعد حركة الوليد بن طريف الشاري من أكبر الحركات الخارجية وأخطرها، فقد ساانده في ثورته أعداد كبيرة من الناس، وسيطر على أرمينية وأذربيجان، وعاث فيهما فسادًا، وعبر نهر دجلة حتى وصل إلى حلوان[1]. ويبدو أن الوليد بن طريف الشاري خرج على الرشيد لزيادة الضرائب والشعور بالظلم، حيث يقول:

أنا الوليد بن الطريف الشاري أخرجني ظلمكم من داري

وبعد أن نجح الوليد بن طريف في إنزال الهزيمة بعدة جيوش أرسلها الرشيد لقتاله كثر أتباعه واشتدت شوكته ثم عاد إلى الجزيرة سنة 179 هـ، فوجه الرشيد إليه يزيد بن مزيد الشيبانى، وهو من وائل فبينه وبين ابن طريف رحم، فقال الوليد:

(1) يقصد بها: حلوان العراق، وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، 2/ 290.

ستعلم يا يزيد إذا التقينا بشط الزاب أي فتى يكون

فجعل يزيد يختاله ويماكره، فكتب إليه الرشيد كتاب مُغضَبٍ، وقال له: "لو وجهت أحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به، ولكنك مداهن، متعصب، وأقسم بالله إن أخرت مناجزته لأوجهن إليك من يحمل رأسك". فشمَّر يزيد بن مزيد للوليد بن طريف وجهز جيشه ثم لقي الوليد بن طريف وهو مغتر بقوته، فقتله وجماعة كانوا معه، وتفرق الباقون، واحتز يزيد بن مزيد رأس الوليد بن طريف وأعطاها للرشيد، فقال الشاعر:

وائل بعضها يقتل بعضا لا يفل الحديد إلا الحديد

فلما وصل الخبر إلى الرشيد اعتمر في شهر رمضان، شكرًا لله على قتل الوليد بن طريف[1].

ب - ثورة العطاف بن سفيان الأزدي

خرج العطاف بن سفيان الأزدي في سنة 187هـ على الرشيد، وكان من فرسان أهل الموصل. واجتمع عليه أربعة آلاف رجلًا وجبى الخراج، وعجز عامل الرشيد على الموصل محمد بن العباس الهاشمي عن رد العطاف، وسيطر العطاف على الموصل كلها وهو يجبي الخراج، وأقام على ذلك سنتين.

فلما عظم أمره خرج الرشيد إلى الموصل فهدم سورها بسببه، وأقسم ليقتلن من لقي من أهلها، فأفتاه القاضي أبو يوسف، ومنعه من ذلك، فلما وصل الرشيد إلى قرية جهينة أراد العطاف مع أربعة آلاف فارس أن يبيتوا عسكر الرشيد ليلًا للفتك به، ولكن شيوخ الموصل ناشدوه وحذروه سوء العاقبة.

ثم خرج العطاف إلى أرمينية وخرج جماعة من أهل البلد إلى الرشيد، واتصلوا

(1) انظر تفاصيل ثورة رافع بن ليث في: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 256، 261. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 304 - 306، 309. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص 504 - 505.

بالقاضي أبي يوسف، الذي أشار على أهل البلد أن يجهزوا بأذان العشاء الآخرة على سطوح منازلهم، فلما سمع هـارون كثرة الأذان، قال لأبي يوسف: «ويحك هـؤلاء مؤمنون»، فدخل الرشيد المدينة وأمَّن أهلها وولَّى حرب الموصل وخراجها يحيى بن سعيد الخرشي[1].

ولم تقتصر ثورات الخوارج على هـذين الثوريتين فقط، بل شهد عصر الرشيد ثورات خارجية بين فترة وأخرى، فقد خرج الفضل بن سعيد الحروي سنة 171 هـ، ولكنه لم يلبث أن قتله أبو خالد المروروذي[2]. وفي سنة 180 هـ خرج خراشة الشيباني بالجزيرة الفراتية فتصدى له مسلم بن بكار العقيلي فقتله[3].

وفي سنة 191 هـ خرج رجل يسمى ثروان بن سيف على الرشيد بسواد العراق، فوجه إليه الرشيد طوق بن مالك، فهزمه طوق، وجرحه وقتل عامة أصحابه، وظن طوق أنه قد قتل ثروان، فكتب بالفتح، وهرب ثروان مجروحًا[4].

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 314. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص506. بتصرف.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 280. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 566.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 266. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 604.

(4) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 323. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 5. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 379.

obeikandl.com

ثالثًا: ثورة أبي النداء

خرج رجل يسمى أبو النداء مع ألف من قطاع الطرق على هـارون الرشيد سنة 191هـ بمنطقة أَيْلَة (العقبة اليوم)، على ساحل البحر الأحمر بالبلقاء في الأردن، وأغاروا على قرى الشام، وانضم إليه من جذام وغيرها جماعة كبيرة وأفسدوا غاية الإفساد.

وبلغ أبو النداء المذكور من النهب والقتل مبلغًا عظيمًا، حتى بلغ الرشيد أمره، فجهز إليه جيشًا من بغداد لقتاله بقيادة قائده يحيى بن معاذ، الذي تمكن بمهارة عسكرية أن يوقع هـزيمة نكراء بأبي النداء ويقضي على حركته، وحُمل أبو النداء أسيرًا إلى الرشيد بالرّقة وقتل فيها[1].

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 323. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 2/ 170 – 171. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص 500. بتصرف

obeikandl.com

رابعًا: ثورة الخرمية

خرجت الخُرَّميَّة[1] في أذربيجان سنة 192هـ، فوجه إليهم الرشيد قائده عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعي في عشرة آلاف، فقتل وسبى وأسر، ووافَى الرشيد بقرماسين، فأمره بقتل الأسرى، وبيع السبي[2].

(1) الخرمية أو البابكية: أتباع بابك الخرمي، ظهر في جبل الْيَذَيْن بأذربيجان، وَكثر بهَا أتباعه، واستباحوا المحرمَات وقتلوا الكثير من المسلمين، وقد حاربهم الخلفاء العباسيون عشرين سنة إلى أن أخذ بابك الخرمي وصلب بسر من رأى في زمن المعتصم سنة 223هـ، وهم طائفة تؤمن بعقيدة التناسخ، والاعتقاد بوجود إلهين، أحدهما للنور والآخر للظلمة، والقول بإباحة النساء. انظر: الإسفراييني: الفرق بين الفرق، 1/ 251، 268.

(2) أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، 1/ 391 – 392. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 339. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 9. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي – الدولة العباسية، 1/ 167.

obeikandl.com

خامسًا: ثورات البربر في أفريقية

استمرت قبائل البربر تنازع العباسيين بين سنتي 178هـ و 181هـ، كما أخذت في التقلص عن الحكم الإسلامي، وغدت كفة النصر ترجح في جانبهم حينًا وفي جانب العباسيين حينًا آخر، ففي أول خلافة الرشيد توفي القائد الكبير يزيد بن حاتم المهلبي، وكان قد ضبط أمور البربر وأصلح حالهم، فلما مات لم يستطع من جاء بعده من ضبط الوضع فثارت الفتن، وكان يقودها الخوارج.

وتوالى تعيين الولاة أو إخراجهم من قبل الثوار حتى أرسل الرشيد قائده هـرثمة بن أعين سنة 178هـ، فآمن الناس وسكنهم، وبنى القصر الكبير بالمنستير سنة 180هـ، وبنى سور مدينة طرابلس مما يلي البحر، ولم تخرج عليه ثورة واحدة، سوى ثورة عياض بن وهب الهواري وكليب بن جميع الكلبي، وجمَّعا الجموع لقتال هـرثمة، فسرَّح إليهما يحيى بن موسى من قواد الخراسانية ففرق جموعهما، وقتل كثيرًا من أصحابهما، ورجع إلى القيروان.

لكن يبدو أن هـرثمة بن أعين بثاقب نظره وطول خبرته رأى أن انتصار العباسيين على البربر أمرٌ لا سبيل لتحقيقه، فاستعفى الرشيد من ولاية إفريقية فقبل الرشيد، وولَّاها لإبراهيم بن أغلب ليكون سببا في تهْدأت نار العداوة في قلوب البربر من ناحية، ولتكون حجر عثرة أمام توسع دولة الأدارسة الناشئة من ناحية أخرى[1].

(1) انظر ثورات البربر في إفريقية في: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 302. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 4/ 249. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص 109 – 110. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – العصر العباسي الأول، 2/ 47.

سادسًا: ثورات اليمن

لم تكن بلاد اليمن هـي الأخرى بمنأى عن الحركات الثورية الخارجة، فكان لها نصيب من هـمِّ الرشيد واهتمامه، ففي سنة 179هـ خرج الهيصم بن عبد المجيد الهمداني اليماني ضد حماد البربري عامل الرشيد على اليمن، وكان قد جار على أهل اليمن وغلظ عليهم، وكان مع الهيصم عمر بن أبي خالد الحميري مقيمًا بعشتان، وكان معه الصبَّاح بناحية يقال لها حراز، وقد استطاع أن يقضي حماد البربري عليها، فأسر عمر بن أبي خالد والصباح وأرسل بهما إلى الرشيد فقتلا، واتصلت المعارك بين حماد والهيصم لأكثر من تسع سنين، قُتل فيها نيف وعشرون ألفًا من الناس، أُسر في نهايتها الهيصم اليماني وابنه وابن أخيه، فأرسلهم حماد البربري إلى الرشيد فصلبوا جميعًا في الرقة سنة 192هـ[1].

(1) ابن حبيب: المحبر، 1/ 488. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 3/ 144.

سابعًا: ثورة الخزر

ففي سنة 183هـ خرج الخزر بسبب ابنة خاقان[1] من باب الأبواب، فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة، وسبوا أكثر من مائة ألف مسلم، وانتهكوا أمرًا عظيمًا لم يسمع بمثله في الإسلام، فولى الرشيد أرمينية يزيد بن مزيد مضافًا إلى أذربيجان، وقواه بالجند، ووجهه إليهم، وأنزل خزيمة بن خازم نصيبين ردءًا لأهل أرمينية.

وقيل: إن سبب خروج الخرز أن سعيد بن سلم قتل المنجم السلمي، فدخل ابنه بلاد الخزر، واستجاشهم على سعيد، فخرجوا ودخلوا أرمينية من الثلمة، فانهزم سعيد، وأقاموا نحو سبعين يومًا، فوجه الرشيد خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد، فأصلحا ما أفسد سعيد، وأخرجا الخزر، وسدَّا الثلمة[2].

هذه كانت أشهر الحركات الثورية أيام الرشيد، وقد لاحظنا أنها كانت حركات فردية أو ذات مطامع شخصية، ثم ما تلبث أن تتلاقى هـذه المطامع مع ظروف معينة كظلم حاكم أو عسف والي، فيجد الثائر له أعوانًا، إلا أن هـارون الرشيد وقف في وجهها موقفًا جازمًا وقاطعًا، حتى كان رحمه الله يترك لهوه ولعبه ويفرغ جهده لقمع مثل هـذه التصرفات؛ إقرارًا للأمن وتثبيتًا لدعائم الخلافة واعترافًا بثقل الأمانة وتبعات المسئولية.

---

(1) كانت ابنة خاقان ملك الخزر قد حملت إلى الفضل بن يحيى البرمكي سنة 182هـ، فماتت ببرذعة (وهي آخر حدود أذربيجان)، وعلى أرمينية يومئذ سعيد بْن سلم بْن قتيبة الباهلي، فرجع من كان معها إلى أبيها، فأخبروه أن ابنته قتلت غيلة، فحنق لذلك، وأخذ في الأهبة لحرب المسلمين. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 269.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 270. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 331.